القصدية والنظام اللغوي
قصّة سليمان - عليه السلام - مقاربة لغوية

أ/ أمينة تجاني
جامعة محمد خيضر– بسكرة-

تمهيد:

يشكل النّص حقلا معرفيّا جامعا، وبؤرة دلاليّة مكثفة، إن لم نقل مشروعا مختزنا يبحث عن مكتشف، لهذا نجده مستعصيا ولا يعرب عن حقيقته بسهولة، ليستثير الذات الواعية ويجعلها تتفاعل معه من خلال القراءة، فنجد الباحث أو القارئ يقترب من عالم النص (عالم اللغة) لمدّ جسور التّواصل بينه وبين عالم الحقيقة، عله يؤسّس لبنية واقع جديد انطلاقا ممّا يتاح له من أدوات معرفية ومنهجية.

والنّص القرآني نصٌ مفتوحٌ يحمل بين دفتيه معنى متحركا يوافق حركة الزّمان والمكان ويناسب تحوّلات الفكر الإنساني عبر العصور، فهو الدستور الرّباني الذي تستنير بوجوده الأمة الإسلاميّة خاصّة، والإنسانيّة عامّة في سعيها لبلوغ القصديّة الإلهيّة. والقصديّة هي إحدى منجزات العصر من المناهج والنظريات اللغوية، وهذه الدّراسة تهدف إلى استثمار القصديّة بوصفها مقاربة لغويّة للكشف عن دلالات قصّة سليمان - عليه السلام- محاولة الكشف عن الجديد الذي يمكن تفعيله في الواقع.

من هذا المنطلق تطرح هذه الدّراسة جملة من التّساؤلات: ما هي القصدية ؟ وما علاقتها بالنظام اللغوي ؟ وهل تسعفنا القصدية في اكتشاف الجديد في قصة سليمان عليه السلام؟ وهل ثمّة علاقة بين البناء اللغوي للقرآن ودلالته ؟

1- مفهوم القصديّة:

إنّ القصدية هي أحد المعايير النّصيّة السّبعة التي ذكرها (روبرت دي بوجراند)[1] ضمن نظريّته في لسانيّات النّص؛ حيث يفقد النص نصيته إذا ما غاب عنصر منه وهي: الاتساق،الانسجام،القصدية،الموقفية،المقبولية،الإعلامية،التناص.

والقصدية تتضمن موقف منشئ النص وهدفه من بناء نص متماسك منسجم لأنه لابد أن يكون للحدث اللغوي نية الدلالة، فليس نصّا ما يقوله المكره أو السكران. ولإدراك مفهوم القصدية أكثر سأتطرق إلى مفهومها لغة واصطلاحا.

أ- **لغة:** أخذت كلمة قصدية من الفعل قصد،وقد جاء في لسان العرب " القصد: استقامة الطريق... طريق قاصد: سهل مستقيم،وسفر قاصد: سهل قريب...وقصدت قصده: نحوت نحوه... والقاصد: القريب... والقصد: العدل "[2].

ب- اصطلاحا:

القصديّة هي " موقف منشئ النّص من كون صورة ما، من صور اللغة قصد بها المتكلم نصّا يحمل معنى بعينه، وهذا النّص وسيلة للوصول إلى غاية ما. ويشترط فيه تحقق الاتّساق والانسجام؛ لتحقق القصدية "[3].

وقد عرفها سيرل أيضا بقوله "هي تلك الخاصية لكثير من الحالات والحوادث العقلية التي تتجه عن طريقها إلى الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها أو تتعلق بها"[4].

فالقصدية تبعا لهذا التعريف اعتقادات ورغبات موجودة داخل الإنسان تنتج عنها أفعالا ظاهرة في الواقع،وعليه فكل شيء يحدث في العالم له قصدية دفعت إليه. أي أنّ "الحالات القصدية عند (سيرل) هي تلك الحالات التي تحتوي مضمونا قصديّا يدل على شيء أو موضوع،وتظهر في شكل سيكولوجي معين يحدد لها اتجاه مطابقة وقصدية هذه الحالات قصدية باطنية لأنها أفعال عقلية،فالعقل هو الأساس العميق الذي تشتق منه الصور القصدية الأخرى كقصدية الصور والرموز واللغة "[5].

من خلال هذا التعريف يمكن ربط القصدية بالنية؛ لأنّها حسب (هوسرل) "علاقة إحالة بين الوعي أو أفعال الوعي وموضوعات الوجود الخارجي "[6]. فكل فعل إنجازي في الوجود الواقعي له قصد باطني أحال إليه. وهذا ما جعل (سيرل) يربط قصديّة الأفعال

العقليّة بقصديّة الأفعال الكلاميّة، ثمّ يقسّم القصديّة إلى: باطنيّة ومشتقّة؛ فالباطنيّة (الأصليّة) هي التي لا تخضع لملاحظ خارجي كالرّغبات والاعتقادات... فهي تمثيلات عقليّة خاضعة لذواتنا ومستقلة عن الملاحظ، أمّا القصديّة المشتقة فهي المعتمدة على الملاحظ مثل قصديّة اللغة [7].

وهذا يعني أنّ النّيّة هي القصديّة الباطنيّة، وهي روح الأعمال في الدين الإسلامي؛ حيث لا يمكن فهم أي قول أو فعل دون الاحتكام إلى نية الشخص فيه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه "[8].

فالفعل الإنجازي المباشر هنا هو الهجرة، والفعل القصدي الباطني غير المباشر هو الزّواج من المرأة أو إصابة المال، ومن هنا نتبين أهمية القصدية في فهم المعاني والمواقف وما إلى ذلك، لأنّ " المعنى اللغوي صورة حقيقيّة من القصديّة ولكنّه ليس قصديّة باطنيّة، وإنّما قصديّة مشتقّة من القصديّة الباطنيّة لمستعملي اللغة "[9].

2- النظام اللغوي والقصدية:

إنّ اللغة هي الحامل المادّي للأفكار والمترجم الحقيقي للرّغبات؛ فلأجل إيصال الفكرة لابدّ من صياغة مفرداتها التّكوينيّة الفكريّة وإفراغ مضمونها وفق اللغة، وهو ما يسمّى "إعادة الهيكلة الفكريّة الذّهنيّة في ضمير الإنسان إلى هيكلة لغويّة وفق منظور رمزي ناقل لتلك المفردات وإعطائها حرّيّة الانتقال من أنا المفكّر إلى الآخر المتلقي"[10]. وهذه الانتقاليّة تأخذ صورا متعدّدة لأنّ " الإنسان ينطلق بالكلام يريد به معنى واحدا من المعاني التي يتضمّنه الكلام، فإذا فسّر بغير مقصود المتكلم من تلك المعاني، فإنّما فسّر المفسّر بعض ما تعطيه قوّة اللفظ وإن كان لم يصب مقصود المتكلم " [11].

وانطلاقا من هذا المفهوم قوّة اللفظ، فإنّ اللغة تملك قوّة دلاليّة تخضعها لتقبّل الشّرح المتعدّد والمتنوّع، أي أنّ للفظ الواحد دلالات كثيرة تختلف من متلقي إلى آخر. ولتوضيح ذلك أكثر أقدّم هذه القصّة:

" قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- لحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه-: كيف أصبحت ؟ فقال حذيفة: أصبحت أحبّ الفتنة، وأكره الحقّ، وأصلي بغير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السّماء.

فغضب عمر- رضي الله عنه - ودخل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال لعمر: على وجهك أثر الغضب يا أمير المؤمنين ؟ فقصّ عليه ما أغضبه من حذيفة. فقال علي: لقد صدق حذيفة، أمّا حبّه للفتنة فهو يعني المال والبنين؛ لأنّ الله - تعالى - يقول " إِنَّمَا أَمْوالُكُم وَأَولادُكُم فتْنَة "[12]. وأمّا أنّه يكره الحقّ فهو يكره الموت، وأمّا صلاته بغير وضوء فيعني بها صلاته على النّبي - صلى الله عليه وسلم- وأمّا ما له في الأرض ما ليس لله في السّماء فهو يعني أنّ له زوجة وولدا، وليس لله زوجة ولا ولد. فقال عمر: والله لقد أقنعتني وأرحتني "[13].

من خلال هذه القصّة يتّضح لنا تعدّد صور ودلالات اللفظ الواحد عند انتقاله من المتكلم إلى المتلقيين (عمر، علي)، وذلك راجع إلى القصديّة (فهم القصد وعدمه). وعليه فإنّ انتقاليّة النّظام اللغوي يأخذ صورا متعدّدة هي:

1- أن يكون الانتقال مطابق لمقاصد المتكلم حيث تتوحّد الصّورة الذّهنيّة بين المتكلم والمتلقي (فكرة- أسلوب- هدف).

2- أن يكون الانتقال تصرّفيّا من المتلقي وفق مقدّماته هو، فهو يتلقّى المفردات على أنّها صور ذهنيّة قابلة للالتقاط من زاوية هو يحدّدها. وهنا ليس من الضّروري أن تتطابق أصل الفكرة وصورتها عند المتلقي (فكرة- أسلوب- هدف) فالهدف أصبح أهدافا وهذا الأمر انحراف عن القصديّة. أي الفشل الذي يعود إلى:

- فشل المتكلم في صبّ الفكرة في قالبها الأبجدي المناسب.

- فشل الأبجديّة باحتواء وصياغة الفكرة من خلال القصور في الوسائل والأساليب المناسبة، وذلك لعدم قدرة الأبجديّة على التّفاعل مع الجديد.

- فشل المتلقي في إدراك ماهيّة القصد الفكري للمتكلم لعلة من العلل المسؤولة عن الفهم (ضعف القابليّة- الأبجديّة- الفكرة).

3- أن لا يكون المتكلم قاصدا أن تكون الصّورة الذّهنيّة عند المتلقي بالكيفيّة التي هي في المكوّنات الذّاتيّة الذّهنيّة لديه، وإنّما طرحها دونما أن يقصد ترسيخها في ذهن المتلقي وعليه يكون هذا النّوع من العمل عبثا. والعبث إشارة إلى الفشل والخروج عن حقيقة الفكر الإنساني [14].

من هنا نجد أنّ القصديّة تلعب دورا كبيرا في تحديد الدّلالات اللغويّة، فكلما كان وصول الفكرة في قالبها اللغوي إلى المتلقي حسب قصد المتكلم أو المفكر كان تطبيقها وممارستها على الواقع الوجودي مناسبا لروح الفكرة وقصدها، وهذا ما يحقّق النّجاح حتما. أمّا الفشل في وصول الفكرة يؤدّي إلى شرخ بين المتكلم والمتلقي ينتج عنه انفصالا بين الفكرة والممارسة العمليّة لها، " وهذا ما يفسّره الاختلاف الفكري بين التّيارات الفكريّة المنطلقة من نظريّة واحدة بقصد واحد لتصل في النّهاية إلى عالم متعدّد الأفكار المتناقضة والمتصارعة فيما بينها "[15].

وعليه فإنّ نجاح المتلقي في استلام الرسالة الفكرية كما صيغت في ذهن المفكر تتطلب "بيان القصد ونجاح اللغة والأبجديّة الصّوتيّة في نقل الأثر الذّهني بين المفكر والمتلقي وبالصّورة المرادة وبالطريقة الذّكيّة ومن خلال استخدام الوسائل المناسبة مع القصد والهدف وفق رؤية متكاملة "[16].

3- القصدية في قصة سليمان - عليه السلام -:

إنّ القرآن الكريم هو المنهج الرّبّاني الذي ارتضاه المولى -عزّ وجل- لعباده، وهذا يعني تعايشه مع كل زمان ومكان، فهو الأصلح دوما للاستجابة للحاجات والمستجدّات التي تطرأ على الإنسان. وهذا يعني أن النّص القرآني نصّ مفتوح يحمل معنى متحرّكا يوافق حركة التّاريخ وتحوّلات الفكر الإنساني في مختلف العصور، ويناسب المتغيّرات الزّمانيّة والمكانيّة. وعلى الباحث تدبّره والانطلاق من لغة القرآن الكريم العربيّة وظواهرها المختلفة للوصول إلى نتائج تخدم المجتمع الإنساني بأكمله.

إنّ القراءة القصديّة لقصّة سليمان -عليه السّلام - تستدعي جمع كل الألفاظ التي تتمحور حول القصّة لأنّ القصديّة تعني أنّ الألفاظ وضعت بشكل مقصود ومتعمّد، وأنّه لا يمكن أن تسد كلمة مسدّ كلمة أخرى فهي مقصودة لذاتها. ولهذا ستكون العناصر

المنهجية المتبعة في تحليل معيار القصدية، هي: الأفعال الكلاميّة والمقاصد الظاهرة، والمقاصد الخفيّة.

تتمثّل الأفعال الكلاميّة في قصة سليمان - عليه السلام - بأفعال الإخبار، النداء، الاستفهام، والأمر وسأقف على القوّة الإنجازيّة لتلك الأفعال على النّحو التالي:

أ- الإخبار:

إنّ توجيه المتلقي وجهة معيّنة يستلزم أوّلا إخباره بالأمر الذي يجهله وإشراكه في صميم القضيّة المعبّر عنها، فلابد من إعطاء معطيات إخباريّة قبل كل شيء، وهذا ما سلكته القصّة في بادئ الأمر، حيث يقول تعالى: **" ولقد آتينا داوود وسليمان علما "**[17] فتعالى يصف عبده سليمان – عليه السلام – بالعلم ولم يصفه بالنّبوّة، والوصف هنا "يومئ إلى الفعل المبتغى والسلوك المرجو لتحقيق الهدف "[18] أي أنّ القصد الخفي هنا يتمثّل في دعوة المسلم لطلب العلم والجدّ فيه لأنّه أساس النّجاح والدّليل على ذلك نبيّه سليمان الذي امتلك العلم ولم يتكاسل كونه نبي، فالعلم أهم مقوّم من مقوّمات الحضارة.

وفي قوله تعالى: "**وورث سليمان داوود** "[19] لم "يعد الإخبار هو القصد الوحيد عند المرسل، وإن عددناه واحدا من مقاصده، فليس القصد الرّئيس، إذ يختبئ وراءه قصد آخر "[20]، فليس القصد إخبارنا بميراث سليمان - عليه السلام - فوراثة الابن لأبيه أمر بديهي ولكن القصد الحقيقي المختفي هو التلميح إلى ضرورة توريث الرّسالة للأبناء حتى يقوموا بدورهم في المستقبل، فلابدّ من التّواصل والعطاء وعدم احتكار العلم والتّفوّق من طرف جيل معيّن والتوقّف عنده، بل يجب تبليغه للأجيال ليحافظوا عليه حتّى يستمرّ النّجاح كما فعل نبيّ الله داوود - عليه السّلام – مع ابنه سليمان – عليه السّلام – فتوريث الدّور الرّسالي مقوّم ثان من مقوّمات النّجاح.

وفي قوله تعالى: "**وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون**"[21] هنا يصف تعالى مملكة سليمان – عليه السّلام – التي استطاع السّيطرة عليها من خلال تطويع كل أفرادها مع اختلاف أجناسهم؛ إذ تضم الإنس والجنّ والطير والوحوش وغيرها فهي بمثابة شركات متعددة الجنسيّات بمفهومنا المعاصر. وقد تمكن من ذلك بفضل تنظيمه

المحكم، حيث كان هو في مقدّمة الرّكب ثمّ يليه الإنس ثمّ يليهم الجنّ ثم الوحوش والطّير فوقهم تظلّهم بأجنحتها من حرّ الشّمس[22]. ولا يمكن لفريق أن يتقدّم على الآخر، وكل يؤدي عمله المطلوب منه حسب اختصاصه وإمكاناته، فلا تتداخل المهام. فوصْف هذه الصّور يجعل الأفعال الكلاميّة الإخباريّة " ذات قوّة إيحائيّة وإغرائيّة، وفعّالة في رسم المشهد الذي يوقظ الإحساس وينبه الهمم "[23] ويوجّهها إلى التنظيم في العمل، والاحترام وعدم التّداخل في الأعمال وهذا هو القصد الخفي لهذا الفعل الكلامي؛ وهو مقوّم آخر من مقوّمات النّهضة.

وفي قوله تعالى: "**حتى إذا أتوا على وادي النمل** "[24] وصْفٌ لتحرّكات سليمان- عليه السّلام- مع جنوده، حيث كان يدرّبهم باستمرار لأنّ التّدريب يكسب الفرد مهارة ومرونة في العمل، كذلك يمنحه قوّة استعداد متجدّدة بعكس الرّاحة التي تؤدّي إلى الكسل وبالتّالي إلى التّخاذل والتّراجع. وهنا يظهر القصد الخفي ضرورة التزام التّدريب في كل الأمور؛ فالمتعلم تكسبه مهارات العلم، والموظف تمنحه مهارات العمل، والعالم تعطيه مهارات البحث وكلها تصب في مجرى واحد الحضارة والتقدّم.

وفي قوله تعالى: " **أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشّمس من دون الله وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون** "[25] نجد أنّ الهدهد يوضّح سبب غيابه لسليمان - عليه السلام-، فهو بذكر هذه الإخباريّات عن مملكة سبأ يسعى إلى "تثبيت الحجة بطريقة تفيد تقرير الحقائق "[26]. والقصد الخفي يتجلى في تحمل المسؤوليّة تجاه الدّين، فالهدهد كان "مهندسا يدلّ سليمان - عليه السّلام - على الماء إذا كان بأرض فلاة؛ حيث ينظر للماء في تخوم الأرض فيحدّد مكان الماء ومسافة بُعْده عن سطح الأرض، ثمّ يحفر الجنّ المكان حتّى يخرج الماء من قراره "[27]، ومع ذلك لم يتوقف عند حدّ وظيفته، ولم يكتف بما كلف به من عمل، بل كان مؤمنا برسالته ويشعر بمسؤوليّة تبليغ الدّين مثل قائده تماما، ولهذا ترك الجيش وطار نحو اليمن ليقدّم لسيّده معلومات عن مملكة تعبد الشّمس من دون الله – عزّ وجل – حتّى يتوجّه إليها ويدعو أهلها إلى الإيمان.

إنّ الإخباريات تغري المتلقي للقيام بالفعل نفسه، فالمسلم ليس أقلّ شأنا من هدهد صغير، وضعيف، فهو أيضا مسؤول عن نشر دينه وتبليغه للعالمين، وهذا هو القصد الخفي تحمل المسؤولية والتي تعدّ مقوّما آخر من مقوّمات النّهضة.

ب- النّداء:

يعدّ النّداء من الأفعال الكلاميّة التّوجيهيّة، لأنّه يحفّز المتلقي لرد فعل المتكلم، وأبرز أدواته (الياء)، ويظهر في القصّة في قوله تعالى: "**وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إنّ هذا لهو الفضل العظيم**"[28].

كان هذا النّداء للنّاس كافة (يا أيها الناس) ولم يخص فئة معينة، لأنّ سليمان -عليه السّلام- وإن كان يخبر الناس بعظيم ملكه ونعم الله تعالى عليه في الظاهر، فإنّه يضمر قصدا خفيّا يتجلى في دعوتين؛ الأولى: الدّعوة الصّريحة إلى تعلم لغات البشر ومنطق الحيوانات، فهو لم يقل (أوتينا) بل قال (علمنا) وهنا إشارة لهذا العلم، وهذا ما توصّل إليه العلم الحديث: دراسة إشارات النّمل لفهم منطقها، ومن ثمّة دراسة منطق باقي الحيوانات. وهذه الدّعوة لتعلم اللغات وإتقانها، وذلك لاكتساب القدرة على التّواصل مع الآخرين والتّحاور معهم من أجل نشر دين الله وتبليغه لكل العالم.

والثانية: الدّعوة إلى استغلال الموارد الطّبيعيّة والبشريّة التي منحنا الله إياها، فهو-عليه السّلام - استخدم كل ما وهبه الله إياه واجتهد في تطويره واستثماره لنشر الدّين، وذلك ليوجهنا إلى ضرورة الاعتماد على النّفس في استغلال الموارد واستخدامها لصالح الدين والأمّة.

ج - الاستفهام:

يعدّ الاستفهام من الآليّات التّوجيهيّة؛ بوصفها توجّه المرسل إليه إلى ضرورة الإجابة عنها، ويستعملها المرسل للسيطرة على مجريات الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه، وقد ورد الاستفهام في القصّة بشكل واضح وجلي، من ذلك:

قوله تعالى: "**وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين**"[29] لم يكن القصد من الاستفهام الجواب المباشر، بل أن تأتي الإجابة باستجابة فعلية، فالاستفهام هنا ليس حقيقيّا بل هو توجيه، وقد صنّف (باخ) الأسئلة ضمن أصناف الأفعال

التّوجيهيّة،وهذه الأخيرة "تعبّر عن توجه المرسل إلى أن ينفذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل"[30] فسؤال سليمان - عليه السّلام – عن الهدهد واكتشاف غيابه رغم صغر حجمه وكثرة تعداد الجيش، توجيه للآخرين بالانضباط وعدم الغياب أو حتى التفكير فيه لأنّ ذلك عواقبه وخيمة.

فالقصد الخفي وراء الاستفهام هو التحلي بالحزم والصّرامة في كل موقف مهما كان من أجل المحافظة على دقّة النّظام؛ لأنّ أي تساهل يخلّ بالتّنظيم وبالسّير الحسن لهذا النّظام ما يؤدّي إلى تضييع الجهد المبذول وكل المنجزات السّابقة.

وفي قوله تعالى: "**قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** "[31] لم يكن استفهاما حقيقيّا بل تمحيص لمّا قدّمه الهدهد من أخبار عن مملكة سبأ، فهي وإن كانت يقينيّة حسبه إلاّ أنّ سليمان - عليه السّلام – لم يأخذ قراره مباشرة بل أراد أن يتأكّد من صحّة المعلومات المقدّمة إليه. والقصد الخفي من هذا الاستفهام يتجلى في توجيه المتلقي إلى ضرورة نقل الأخبار الصادقة والحقيقيّة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعليمه التحرّي والتّدقيق قبل اتخاذ أي قرار، لأنّ أي خطأ في نقل المعلومة أو تسرع في الحكم قد يؤدّي إلى ما لا يحمد عقباه.

وفي قوله تعالى:"**وإنّي مرسلة إليهم بهديّة فناظرة بم يرجع المرسلون** "[32] استفهام يكشف عن اختبار لصدق دعوة سليمان - عليه السّلام - حيث كان فِكْر الملكة بلقيس يتأرجح بين طمع الملوك في السلطة والمال، وبين الدّعوة للإسلام حقّا، فأرسلت له هدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ لتدرك حقيقة دعواه، ومن ثمّة تقرّر قبولها أو رفضها. والقصد الخفي من الآية توجيه المتلقي إلى الصّدق والإخلاص لله تعالى وحده في كل الأمور دون الطمع في دنيا زائلة (مال، سلطة، نفوذ...).

وفي قوله تعالى: "**أتمدّونن بمال فما آتاني الله خير ممّا آتاكم** "[33] استفهام ينبئ عن سخرية واستهزاء، لانّ سليمان – عليه السلام- لم يكن بحاجة للمال ولا للسلطة، فما آتاه الله - عز وجل- لا يعد ولا يحصى، فهو يدعو لله تعالى بصدق ولذلك أراد إبهار رسل الملكة بقوّته المادّيّة بإظهار بعض ما لديه من أموال " فأمر الشّياطين فموّهوا له ألف قصر من ذهب وفضّة، فلمّا رأت رسلها ذلك، قالوا: ما يصنع بهديّتنا "[34]. والقصد الخفي هنا توجيه المتلقي إلى عدم التطلع إلى ما في يد الغير لأنّ ما عند الله خير وأبقى.

وفي قوله تعالى: "**قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين**"[35] وهنا استنفار للهمم للقيام بالأعمال والمهام الصّعبة، فتقدّم جنديّان من جيشه الرّائع "عفريت من الجن واسمه كوزن، ورجل عنده علم الكتاب واسمه آصف وهو كاتب سليمان - عليه السّلام، وكلاهما يتنافسان في سرعة إحضار العرش إلى نبيّ الله؛ فأمّا الأوّل قال بأنّه سيأتي به قبل أن يقوم من مجلسه، وأمّا الثّاني قال بأنّه سيأتي به قبل أن تطرف عينه، وبالفعل أحضره الثّاني في طرفة عين، وقد كان صدّيقا يعلم الاسم الأعظم"[36]. فالعرش لم يحضره العفريت رغم طاقاته الخارقة، بل أحضره الإنسان المحدود الطاقة لأنّ همته العالية مكنته من ذلك، فهو صدّيق والصّديقيّة درجة عالية في الولاية.

والقصد الخفي هنا توجيه المتلقي إلى الاهتمام بالقوّة الرّوحيّة إلى جانب القوّة الماديّة لتحقيق النّجاح، والاعتماد على أولياء الله -عز وجل - وعدم التنكر لهم لامتلاكهم المعرفة اليقينيّة التي تؤسس لبناء صرح الحضارة والتقدم، فالعلم الحديث أثبت أنّ آصف كان ذو معرفة بعلم الذرّة في زمنه ودليلهم على ذلك عرش بلقيس الذي أعدمه في اليمن، وأعاد صنعه في فلسطين لعلمه بمكوناته وذرّاته وجزيئاته، لأنّه ليس من المنطقي أن نصدّق أنّه طار به في السّماء أو غاص به في الأرض كما يقول البعض.

وفي قوله تعالى:" **قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** "[37] ليس المقصود من الاستفهام البحث عن إجابة، ولكن أن تأتي الإجابة باستجابة فعليّة، وهنا توجيه المتلقي إلى الحمد وهو كما يعرّفه الجرجاني "الثناء على الجميل من جهة التعظيم من نعمة وغيرها "[38]. وذلك لأن الشكر باب لزيادة النّعم لقوله تعالى: " لئن شكرتم لأزيدنّكم "[39]. بل هو أقرب الأبواب إلى الله – عز وجل – لاعتنائه به حيث لم يربطه بالمشيئة وقدّمه على الإيمان في قوله: " ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم "[40].

وفي قوله تعالى:" **أهكذا عرشك قالت كأنّه هو** "[41] في الآية استفهام القصد منه استثارة الدّهشة والتعجب، لأنّ الإعجاب والانبهار يؤثر في القلب تأثيرا بالغا فيجعله مستعدّا لقبول أي دعوة، وفي القصة الدّعوة للإيمان بالله – عز وجل – وربّما هذا ما يفسّر إتباعنا للغرب بسبب انبهارنا بحضارتهم وعلومهم، ولو انعكس الأمر لقبلوا دعوتنا

للإيمان. وذلك لمّا علمت الملكة بلقيس بقوّة سليمان - عليه السّلام – وتفوّقه قرّرت القدوم إليه للتّفاوض فعمد نبي الله لإظهار مدى تفوّقه على كل الأصعدة وإبهار الملكة بتكنولوجيته الفائقة.

د - الأمـــــــر:

إنّ الأمر من الأفعال التّوجيهيّة، وهو فعل إنجازي يهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معيّن؛ إذ "يتوسّل به إلى إتيان الفعل لأهمّيّته " وقد يستعمله المتكلم لرغبته في "أن يكلف المتلقي بعمل ما، أو يوجّهه لمصلحته من جهة، وإبعاده عن الضّرر من جهة أخرى أو توجيهه لفعل مستقبلي معيّن "[42]. وقد تنوّع الأمر في القصّة بحسب المتكلم والمتلقي (بين النملة وقومها، بين سليمان –عليه السلام – والهدهد، بين الملكة بلقيس وقومها)، وسأوضح كل واحد على حدة.

د-1- النّملة وقومها:

في قوله تعالى: "**قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون**"[43]. وجّهت النّملة قومها إلى الاختباء والاحتماء بالمساكن من الخطر المحدق بهم، رغم كونها ليست ملكة ولا مسؤولة عنهم، بل زد عن ذلك "كانت عرجاء وهي تسمّى حرس من قبيلة بني الشّيصان "[44]؛ لأنّها تشعر بالمسؤوليّة الفرديّة تجاه قومها، لهذا لم تدخل بيتها وتهتم بنفسها، بل تحملت مهمة الحفاظ على سلامة الآخرين، والحرص على حياتهم دون الالتفات إلى الشكر أو المقابل. وهنا يظهر القصد الخفي من الآية تحمل المسؤوليّة فكل مسلم ملزم بذلك تجاه أمّته ووطنه مهما كانت صفته أو رتبته أو منصبه؛ فهو ليس أقل شأنا من نملة.

د-2- الملكة بلقيس وقومها:

في قوله تعالى: "**قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون**"[45]. لم تكن الملكة تأمر قومها بل كانت تستشيرهم في أمور الدّولة، فرغم كونها ليست على دين الله - عز وجل - إلاّ أنّها استخدمت الشّورى؛ التي تعدّ عاملا مهمّا وأساسيّا للنّجاح وربّما هذا ما جعل مملكتها قويّة ومتفوّقة، فهي لا تأخذ أيّ قرار دون مشاركة قومها. والقصد الخفي القابع وراء هذا الأمر دعوة وتوجيه إلى استخدام الشورى والمشاركة والعمل الجماعي في حياتنا وفي كل أعمالنا، فهي سبيل النّجاح والتّفوّق دوما.

وفي قوله تعالى:"**نحن أولوا قوّة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**"[46] لم يكن الأمر حقيقيا بل يوحي بالتسليم والخضوع؛ فمجلس شورى الملكة لم يتخذ القرار المناسب وترك الأمر للملكة تتصرّف فيه كيف تشاء. وتكشف الآية عن قصد خفي يتمثل في توجيه المتلقي إلى عدم الاتصاف بالسلبية والتردّد.

د-3- سليمان - عليه السلام - والهدهد:

في قوله تعالى: " **اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون**"[47] أمر حقيقي للهدهد بأخذ رسالة سليمان - عليه السلام- لملكة سبأ يدعوها فيها للإيمان بطريقة دبلوماسيّة رائعة ومؤثرة لأنّ السفير هدهد.

في قوله تعالى: "**ألا تعلو عليّ وأتوني مسلمين** "[48] أمر حقيقي ودعوة صريحة للإسلام.

في قوله تعالى:" **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة صاغرين** "[49] يكشف هذا الأمر عن وعيد وتهديد، ونستشعر فيه وجود القوّة العسكريّة التي تخيف العدو وترهبه، وهذا هو القصد الخفي لابدّ من وجود قوّة تحمي الدين وتدافع عن النجاح، وتبعث على التقدّم نحو الأمام، يقول تعالى: " وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ".

د-4- سليمان – عليه السلام – وبلقيس:

في قوله تعالى: " **قيل لها ادخلي الصّرح فلمّا رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرّد من قوارير** "[50] يظهر الأمر حقيقيّا حيث طلب سليمان -عليه السّلام- من الملكة بلقيس دخول الصرح، ولكن يخفي وراءه قصدا آخر يتمثل في إبهار هذه الملكة بالتقنية العالية والدقة المتناهية التي تكشف عن تفوق علمي وتكنولوجي عظيم "إنّها تكنولوجيا غير عاديّة أوصلتهم إلى بناء قصر زجاجي فوق الماء متناهي الدّقّة حيث يحسبه النّاس ماء "[51]. وهنا أعجزها سلطان العلم والتّفوّق الحضاري فأعلنت إسلامها " **قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** "[52]، أسلمت ملكة سبأ وقومها بسلطان العلم لقوله تعالى على لسان سليمان: "**وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين**"[53] لأن التّقدّم العلمي والتّطوّر التّكنولوجي والتفوّق الحضاري هو أعظم وسيلة للتأثير والإقناع.

وخلاصة القول إنّ المقاصد الخفية لقصة سليمان -عليه السلام - هي تحديد مقوّمات النهضة التي تحقق التّفوّق الحضاري للمسلمين في كل زمان ومكان، وهي التي أدّت إلى نجاح سليمان - عليه السّلام - حيث تجمع بين القوّة العلميّة والتكنولوجيّة العالية، والقوّة العسكريّة الفائقة، والقوّة الإيمانيّة الروحيّة الثابتة، لأنّ القصّة لم تذكر صفة النّبوة. فالنّهضة إذن تستلزم قوّة مادّية (علمية وعسكريّة)، وقوّة روحيّة (إيمانيّة)؛ فعلى كل مسلم أن يسعى لامتلاك هذه القوى لتحقيق النهضة الإسلاميّة التي تبهر الكافر وتقوده إلى اعتناق الإسلام.

إنّ التّقدّم العلمي للمسلمين والتّطوّر التّكنولوجي والتفوّق الحضاري هو أساس الدّعوة إلى الله، إلى جانب الشّعور بالمسؤوليّة من جانبين: الدّين والأمّة، وذلك من خلال شخصيتي (النّملة والهدهد) وإن كانا من أضعف خلق الله، فإنّ ضعفها لم يثن عزيمتها في أداء مهامّها، ليغرسا فينا الشّعور بالمسؤوليّة والانتماء الدّيني، فكل واحد منّا مسؤول على أمّته الإسلاميّة وعلى الدّين الإسلامي حسب طاقته وعمله وحدوده، فمهما كان فهو ليس أضعف من الهدهد والنّملة.

إنّ نشر الدّين الإسلامي في كل ربوع العالم يتطلب منّا أن نكون رائدين للأمم، متفوّقين علميّا وحضاريّا، ملمّين بكل علوم عصرنا ومبدعين فيها، متحمّلين المسؤوليّة تجاه الدين والأمّة؛ لأنّ المسلم القوي والمتفوّق يؤثّر في الآخرين أضعافا مضاعفة من مسلم ضعيف سلبي.

الهوامش والمراجع

1 دي بو جراند: باحث لساني أمريكي قدم نظرية منسجمة في لسانيات النص في كتابه (النص والخطاب والإجراء) الذي صدر عام 1980 بغرض النظر إلى النص من زوايا مختلفة،بداية من الرصف إلى المفاهيم،إلى تطبيق نتائج الدراسة على المحادثة والقصص،وصور الإنتاج النصي الأخرى قصد الاستفادة من هذا العلم أثناء الترجمة وتعلم اللغات. ينظر: روبرت دي بوجراند،النص والخطاب، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1989، ص69.

2 ابن منظور،لسان العرب ،دار صادر، بيروت، م 3، ص 335 مادة (قصد).

3 دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 103.

4 صلاح إسماعيل،فلسفة العقل،دراسة في فلسفة سيرل،دار قباء الحديثة، القاهرة، مصر، 2007، ص 229.

5 المرجع نفسه، ص 229.

6 مجدي عرفة، الفينومينولوجيا والبحث في الإنسان، ص 5. نقلا عن: وشن دلال، القصدية من فلسفة العقل إلى فلسفة اللغة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع6، جانفي 2010، ص 10.

7 ينظر: صلاح إسماعيل، فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، ص 231، 232.

8 أبو زكريا يحي بن شرف النووي، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة منقحة، 2005، ص11.

9 صلاح إسماعيل، فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، ص 230.

10 عباس علي جاسم، القصدية الحكمية وقضية التفسير القرآني، مركز الولاية للدراسات والبحوث، ط 1، 2005، ص 39.

11 ابن عربي، الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، م 4، ص 136.

12 سورة الأنفال، الآية 28.

[13] إبراهيم الحازمي، الأجوبة المسكتة، دار الشريف، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2001، ج 1، ص 137.

14 ينظر: يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن الكريم،مقاربة قصدية، سورة الكهف أنموذجا،رسالة دكتوراه،إشراف:زروقي عبد القادر، جامعة السانية، وهران، 2013 /2014 ، ص 280، 281.

15عباس علي جاسم، القصدية الحكمية، ص 40.

16 يوسفي يوسف، النظام اللغوي في القرآن الكريم، ص 281.

17 سورة النمل، الآية 15.

18 آمنة بلعلى، المنهج الأمثل للتواصل والحوار، نماذج من القرآن الكريم،مجلة التراث العربي،ع 89، 23 محرم 1424،مارس 2003،ص 201.

19 سورة النمل، الآية 16.

20 عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1،2004،ص 368.
21 سورة النمل، الآية 17.
22 ينظر: عماد الدين إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الاعتصام، القاهرة، م 3، ص 451.
23 محمد مشعالة، الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، رسالة دكتوراه، إشراف: عبد القادر دامخي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009 /2010، ص 201.
24 سورة النمل، الآية 19.
25 سورة النمل، الآية 24،23،22.
26 بوقرومة حكيمة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، مقاربة تداولية، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، ع 3، 2008، ص 17.
27 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،م 3، ص 452.
28 سورة النّمل، الآية 16.
29 سورة النمل، الآية 20.
30 عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 338.
31 سورة النمل، الآية 27.
32 سورة النمل، الآية 35.
33 سورة النمل، الآية 36.
34 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م 3، ص 456.
35 سورة النمل، الآية 38.
36 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م 3، ص457.
37 سورة النمل، الآية 40.
38 علي بن محمد الجرجاني،التعريفات،دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص93
39 سورة إبراهيم، الآية 7.
40 سورة النساء، الآية 147.
41 سورة النمل، الآية 42.
42 بوقرومة حكيمة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، ص 12،11.
43 سورة النمل، الآية 18.
44 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م 3، ص 451.
45 سورة النمل، الآية 32.
46 سورة النمل، الآية 33.
47 سورة النمل، الآية 28.
48 سورة النمل، الآية 31.

49 سورة النمل، الآية 37.
50 سورة النمل، الآية 44.
51 عمرو خالد، خواطر قرآنية، نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط 1، 2004، ص 285.
52 سورة النمل، الآية 44.
53 سورة النمل، الآية 44.